نحيى

اليمين يتنكر للمغاربة الذين حرروا النمسا

إذا كانت مدينة إنسبروك النمساوية قد منحت الفرصة لحزب يميني متطرف ليجعل من قضية إنسانية محل جدل سياسي وانتخابي كاد أن يتسبب في أزمة دبلوماسية بين المغرب والنمسا؛ فإن مدينة فلدرخ، وعلى عكس جارتها إنسبروك، تحتفظ للجالية المغربية بذكريات جميلة، منذ مرور الجنود المغاربة بها إبان نهاية الحرب العالمية الثانية، وتخلّد أسماءهم في شوارعها وجبالها ومحطة قطارها.

محمد مسعاد: موفد "الآن" إلى إينسبورك (النمسا)

الوصول إلى إنسبروك، المدينة النمساوية الجبلية الهادئة، ينسيك تعب السفر الذي استغرق أكثر من عشر ساعات عبر القطار، من غرب ألمانيا مرورا بفرانكفورت وشتوتغارت وميونيخ. فجأة وجدت المدينة الجميلة الصغيرة، التي لا يتعدى سكانها 150 ألف نسمة، نفسها في خضم سجال سياسي واعلامي وديبلوماسي بين المغرب والنمسا. وذلك بسبب شعار انتخابي يصف المغاربة باللصوص.

وللوقوف على الحكاية وخلفياتها توجهنا إلى هذه المدينة، بعد ترتيب بعض الأمور مع عدد من مغاربة النمسا الذين وجدوا أنفسهم في معركة أطلقوا عليها "معركة الدفاع عن النفس والوطن". كان الوصول زوالا ووجدنا السيد نور الدين في انتظارنا بمحطة القطار. إنه شاب مغربي متزوج من نمساوية تتكلم الدارجة وأمازيغية الأطلس المتوسط بطلاقة محيّرة. بعد وجبة غذاء عند السيد عبد الرحمن، المغربي الآخر الذي يقيم هناك منذ ما يقرب من عقدين، وهو ينحدر من محاميد الغزلان، توجهنا إلى وسط المدينة، وبشكل تلقائي سألت شابة نمساوية عن وجهة نظرها في الحملة التي شنّها مرشح حزب "الحرية" النمساوي لعمادة المدينة فجاء جواب كاتارينا، طالبة وتبلغ من العمر 20 سنة كالتالي: "مؤسف ما وقع، ومسيء للغاية لجوء مرشح هذا الحزب إلى التهجم على بلد وشعب بكامله". توقفتْ قليلا واستأنفت القول: "ربما يشكل موقفي هذا رأي الأقلية، حيث يعتبر العديد من السكان ومن قديم السنين أن المغاربة مجرمون". كان الموقف بالنسبة إليّ صادما، إذ اعتبرت أن الرجل نجح فعلا في خلق التوتر بين البلدين والتأثير على التعايش الموجود بين المغاربة المقيمين هناك والنمساويين.

لماذا المغاربة؟

أمر محيّر فعلا أن يجد مغاربة أنفسهم في خضم حملة انتخابية بتفاعلاتها السياسية والإعلامية والدبلوماسية، خاصة إذا عرفنا أن عدد المغاربة في إنسبروك، حسب معطيات رسمية صادرة عن مكتب الإحصاء، لا يزيد عن 110، وبالكاد يصل عددهم في النمسا برمتها إلى 3000 شخص. أما المعطيات الخاصة بالجريمة، فإن بيانات دقيقة توضح أن عدد القضايا التي أحيلت إلى النيابة العامة وصل في العام الماضي إلى 454 حالة. ولكن الجواب المحيّر هو أن المدينة لا تتوفر على معطيات رسمية حول الجريمة التي ارتكبها مغاربة. فلماذا، إذن، هذا الهجوم وتحويل مغاربة إلى مادة انتخابية؟

مضاربة انتخابية

لا يتعلق الأمر، حسب ما وقفت عليه في جولتي في المدينة، بمغاربة إنسبروك؛ بل بشباب يقيم في المدينة بطريقة غير شرعية من بينهم عدد غير قليل من القاصرين. إنهم شباب يتهمهم سكان المدينة ووسائل الإعلام

المحلية بالاتجار في المخدرات وبالوقوف وراء عدد من حالات العنف التي ارتفعت نسبتها في المدينة في الآونة الأخيرة. فجأة ينبهني مرافقي إلى واحد من المعنيين بالأمر. شاب بسحنة مغاربية. بعد التحية، ردّ علي بتحية مغربية. سألته عن أوضاعه فتجاوب معي بكل تلقائية. شاب ترك الزمن ومحنه عليه أثرا واضحا. عمره 22، وأخبرني بأنه ينحدر من حي البرنوصي بالدار البيضاء. هاجر المغرب سرا منذ سبع سنوات وتنقّل بين العديد من البلدان إلى أن وصل هو ورفقاء آخرون إلى هذه المدينة، وذلك عبر الحدود الإيطالية التي لا تبعد عنها إلا بـ 23 كيلومترا.

ونحن نسير وصلنا إلى حديقة قرب محطة القطار. وجدنا خمسة شبان تتراوح أعمارهم ما بين 22 و33 سنة. مصطفى يبلغ من العمر 27 سنة، يحاول بيع سروال من الجينز لإحدى السيدات النمساويات التي تبدو من مظهرها الخارجي أنها بدون مأوى. هاجر مصطفى المغرب بطريقة غير شرعية وعمره 11 سنة. تنقّل، بدوره، بين أكثر من بلد أوربي حسب روايته، واعتقل أكثر من مرة، آخرها في مدينة إنسبروك التي قضى في سجنها ثلاث سنوات بتهمة الاتجار في المخدرات.

وعن سؤال حول الاتهامات التي يوجهها إليه سكان المدينة، ردّ قائلا: "ماذا ينتظرون منا ونحن نعيش على هذا الحال. ننام في ظروف صعبة، وليس لدينا أي دخل مادي؟". سألته عما ينتظره من المغرب، فلم يفهم السؤال وأعدت عليه السؤال باللهجة الدارجة: "باش يقدر يعاونك المغرب؟" فردّ بسخرية أضحكتنا جميعا: "غير يهنيونا راحنا تانعاونو المغرب". سألته كيف؟ ردّ قائلا: "كل واحد منا يحوّل ما استطاع جمعه من أموال إلى أسرته".

كانت محاسن، وهي مغربية تقيم في المدينة منذ 25 سنة وتملك بزارا أطلقت عليه اسم "دار المغرب"، قد أخبرتني في مكالمة هاتفية بأن التحويلات المالية من النمسا إلى المغرب عبر خدمة "ويسترأونيون" متوقفة. ويرتبط السبب بهذا الوضع أساسا. سألت صديقنا عن الموضوع فأخبرني فعلا بأنها متوقفة بسبب تحويل مبلغ كبير من هناك إلى المغرب. لم يتسّن التأكد من ذلك، فالأمر يبعث على الريبة. غير أن صديقنا ردّ قائلا: "هناك ألف طريقة لإرسال الأموال إلى المغرب". ما يحيّر في طريقة كلام مصطفى أنه يعتبر ما يقوم به وأقرانه أمرا ليس بالخطورة الكبيرة، كما هو حال المافيا الإيطالية أو الروسية. "آش تانديرو حنا؟ والو تانروجو غير الحشيش".

سألت مصطفى مرة أخرى عن عدد الشباب المغاربة من أمثاله الموجودين بالمدينة، فردّ عليّ: "واشتك آلخوى كثرتي علي في السؤالات". قبل أن يقول إنهم ما بين الـ150 و200 من بينهم أطفال قاصرون.

تركت الشباب في حال سبيلهم وتوجهنا إلى وسط المدينة، حيث شباب مغاربة آخرون في انتظاري: سعيد مهندس، التحق بوالده الذي هاجر إلى النمسا منذ ثلاثة عقود، ونور الدين يتلقّى تأهيلا مهنيا، وعبد النبي سائق طاكسي. شباب يحملون الجنسية النمساوية فجأة وجدوا أنفسهم مجبرين على خوض معركة أطلقوا عليها "معركة الدفاع عن النفس والوطن"، يقول نور الدين. أما سعيد، فيصرح قائلا: "ما ذنب المغاربة الذين يعيشون في النمسا؟ نتعرّض، يوميا، للإهانات، سواء في الشارع أو في مقر العمل. أطفالنا يتعرّضون للشتم من لدن زملائهم في المدارس".

> ترى فيلبي أن ما وقع في إنسبروك خطوة إضافية في حلقة ترويج خطابات العنصرية والهجوم على المهاجرين، وخاصة العرب والمسلمين.

ما الحل إذن؟

من الناحية القانونية، نحن أمام شباب مهاجر بطريقة غير شرعية مجهول الهوية. والسلطات النمساوية تقف مكتوفة الأيدي أمام هذا الوضع، على اعتبار أن اتفاقية جنيف لحماية اللاجئين تمنع ترحيل شخص مجهول الهوية، أو طالما أنه يمتنع عن كشفها طواعية، مع الإشارة إلى أن هذه الظاهرة ليست جديدة على مدينة إنسبروك، إذ ترجع إلى بداية تسعينيات القرن الماضي. إنها قضية إنسانية استغلها حزب "الحرية" النمساوي من أجل كسب أصوات الناخبين. هناك مقاربتان متناقضتان للتعامل مع هذا الوضع: الأولى مقاربة أمنية تتبنى الصرامة وتقوية الجهاز الأمني من أجل التعامل مع هؤلاء، وهذه المقاربة تدافع عنها الأحزاب اليمينية، فيما تتبنى الأحزاب اليسارية ومنظمات المجتمع المدني والجمعيات الحقوقية مقاربة شمولية مستدامة، كما هو حال الناشطة الحقوقية إنغريد فيليبي التي صرحت قائلة: "إن هؤلاء الشباب ضحايا وضع اقتصادي وسياسي، وأوربا ليست بريئة منه. إنه النقاش الذي يطالب بإعادة النظر في سياسة دول الشمال الغنية تجاه دول الجنوب الفقيرة".

ترى فيلبي أن ما وقع في إنسبروك خطوة إضافية في حلقة ترويج خطابات العنصرية والهجوم على المهاجرين، وخاصة العرب والمسلمين. ولا يمكن مواجهة هاته الوضعية، في نظرها، إلا إذا تحمّل المهاجرون أنفسهم المسؤولية وآمنوا بأن الديمقراطية وحق التصويت كفيلان بإعادة التوازن. لربما من إيجابيات هذه الحملة أنها حمّست المغاربة المجنسين في المدينة للذهاب إلى التصويت من أجل قطع الطريق أمام الأحزاب اليمينية المعادية للمهاجرين.

ودعت المدينة وصوت محاسن يرن في أذني: لا تتركونا وحيدين مع هذا الوضع. لم أكن أملك جوابا سوى أنني سأنقل ما عاينته هناك بكل موضوعية.

محاسن والمغاربة الآخرين هم الآن مرتاحون لصناديق الاقتراع التي منحت صاحب الشعار العنصري أقل من 5 في المائة، وإن حصل حزبه على تقدم طفيف، بعدما كانت ترجحه استقراءات للرأي بحصد فوز تاريخي.

غادرت النمسا إلى برلين ولسان حالي يقول: إن السياسة هي التي تعكّر صفو القلوب.

حينما زار محمد الخامس النمسا

فلدرخ مدينة أخرى جبلية جميلة لها تاريخ قوي مع المغاربة، وتعيش على إيقاع تعايش ثقافي من خلال أول لقاء مع المدينة: ألا وهو محطة القطار. وقد زينت جدران هذه المحطة، التي تحمل اسم "الأدب في المحطة"، بأسماء كتّاب نمساويين وآخرين عالميين لهم علاقة بالمنطقة؛ من بينهم رائد الرواية الحديثة جيمس جويس. وللمغرب أيضا نصيب في هذه اللائحة من خلال الكاتب المغربي المقيم في المدينة منذ أكثر من عقدين، حميد لشهب وعضو مجلسها للمرة الثانية على التوالي. وكانت دهشتي أكبر بعدما كشف لي الدكتور لشهب بعض أسرار المدينة وعلاقتها بالمغرب. وذلك من خلال شارع يحمل اسم المغاربة، والنجمة المغربية المحفورة على واجهة جبل كبير يطل على قنطرة. وقفت مشدوها لهذا الحضور اللافت للعيان للمغرب في هذه المدينة التي لا تبعد سوى بـ180 كيلومترا عن إنسبروك. وترجع حكاية هذا الحضور إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث وصلها المغاربة المجندون في الجيش الفرنسي وحرّروها من قبضة النازية. وعند وصولهم إلى وسط المدينة نصبوا الخيام بأحد شوارعها. ومن وقتها والشارع يحمل اسم شارع المغاربة. أما النجمة فتعود قصتها إلى القنطرة التي هدمها القصف النازي، فساهم الجنود المغاربة في إعادة بنائها. ولكن اللحظة القوية في هذه العلاقة هي زيارة السلطان المغربي محمد الخامس ووليّ عهده الحسن الثاني للجنود المغاربة في مدينة بريغنس القريبة من هناك أواخر 1945. وطبعا لهذا الحضور أثر بشري أيضا، إذ يوجد في المدينة العديد من أبناء الجنود المغاربة، وقد أتحفني الدكتور حميد لشهب بأرشيف مهمّ حول الجنود المغاربة وقضية أطفالهم أو ما يسمّى بأبناء الجنود المغاربة. وقد ساهم رئيس الجمعية المغربية في المناطق الناطقة بالألمانية والحاصل على جائزة "إيريش فروم"، لمجهوداته في تقريب الثقافات، في توطيد علاقات هؤلاء الأبناء بالمغرب، بعدما رتّب لهم أول زيارة لهم للمغرب في سنة 2006 للتواصل مع بلد آبائهم.